المتنبي فى ديوانه

بمناسبة ذكراه الألفية

للأستاذ عبد الله كنون الحسني

اختلفت مذاهب الأدباء فى المتنبي بين المدح والذم اختلافاً شديداً منذ العصر الذى كان يحيا فيه إلى الآن ، وقدمرَّ على وفاته عشرة قرون كاملة . وانك لتجد اليوم بعد هذه الأجيال الطويلة من يتكلم عن المتنبي بلسان الصاحب بن عباد خصمه العنيد الذى جعل وَكْده النيل من المتنبي وانكار فضائله بالحق أو الباطل ، ومن يدافع عنه ويتعصب له أكثر من ابن جنى وأبى العلاء . ولقد كان حريا أن تضيع حقيقة المتنبي بين التفريط والافراط من الفريقين كما هو الشأن فى كل ما يَتَعاوَرُه هذان العاملان المختلفان ، ولـكن المتنبي كان شخصية فذة تأبى إلا الاعلان عن نفسها والظهور بمظهرها الحقيقى مهما حالت الحوائل بينها وبين الناس

فالمتنبي لايجهل أحد من المثقفين اليوم أنه من أكبر شعراء العربية إن لم يكن أكبرهم على الاطلاق . رفع من شأن الشعر العربى فأحله مرتبة لم تكن له من قبل ، بما نفى عنه من الزخارف اللفظية والأساليب التقليدية والأغراض السافلة ، وما نفخ فيه من روح العظمة والابتكار والسمو إلى الغايات البعيدة المنال . حتى انه إذا مدح شخصاً فان مدحه له يكون كالتلقين لمبدأ سام لا يجد الانسان مندوحة عن الاستجابة له من أعماق نفسه . ولا نستدل على ذلك بأكثر من مطلع هذه القصيدة التى يمدح بها سيف الدولة ، فان فيه وحده بلاغا لمن يتشكك فى هذا القدر ، وهو قوله :

على قَدْرِ أهـــلِ العزْمِ تأتى العزائمُ
وتأتى على قَـدْرِ الـكِرَامِ المكارمُ
وتَـعْظُمُ فى عَيْنِ الصَّغيرِ صغارُها
وتصغُرُ فى عين العَظيمِ العَظائمُ

وكما يعرف الجمهور هذه الحقيقة من أمر المتنبي اليوم ، فانه كان يعرفها بالأمس وفى نفس عصر المتنبي . يدلنا على ذلك هذه العناية الـكبيرة من الأدباء بشعره ؛ فمن شرح له ، إلى انتقاد ، إلى تقريظ ، إلى غير ذلك مما لم ينله شاعر قبله ولا بعده . وفى حياة المتنبي قال ابن العميد لأحد خلصائه : « انه والله ليغيظنى أمر هـذا المتنبي واجتهادى فى اخماد ذكراه ، فقد ورد على نيف وستون كتابا فى التعزية ما منها الا وقد صدر بقوله :

طَوَى الجزيرةَ حتى جاءنى خبرٌ
فَـزِعْتُ منه بآمالى إلى الـكذبِ
حتى إذا لم يَدَعْ لى صدقه أملاً
شَرِقت بالدمع حتى كاد يَشْرَقُ بى

ولاحظ الأستاذ العقاد [1] عن المدة بين نظم القصيدة التى منها هـذان البيتان وموت أخت ابن العميد التى كانت التعزية فيها ، أنها لا تزيد كثيراً على سنة واحدة . فانظر كيف كان تَلَقُّف الأدباء لآثار المتنبي وتلقيهم لها بالقبول ، برغم وجود كثير من المنافسين له والعاملين على اخماد ذكراه كما يعبر الرئيس ابن العميد !

فمقام المتنبي دائماً أرفع من أن يتطاول اليه أحد ، وشأنه أكبر من أن يؤثر فيه مقال أهل الحسد . وما كثرت هذه التتبعات لشعره فكثرت بسببها المغَرات التى يأخذها عليه خصومه ، إلا لأن نبوغه كان أكمل وأتم ، وعبقريته أجل وأعظم ؛ والناس منـذ كانوا مولعون بالعظماء يتلمسون عيوبهم فيظهرونها ، ويتكشفون عوراتهم فلا يسترونها . على أن جل ما أخـذ على المتنبي قد رده المحققون وبينوا أن الصواب ما ذهب اليه هو ؛ وبعض الباقى هو مما لم يخل منه كاتب ولا شاعر فى القـديم والحديث ، وأى صارم لا ينبو ؟ وأين الجواد الذى لا يكبو ؟

نعم ، هناك هَنات لا تزال لاصقة بالمتنبي فتزرى بشخصه الكبير ؛ ولا زال البحث العلمى بعيداً عن أن يصل فيها إلى نتيجة حاسمة ، فنريد أن نأتى عليها بصيصاً من نور التحقيق معتمدين فى الـكثير على شعر المتنبي الذى هو أصدق مرآة لنفسيته وأخلاقه . وسيكون اعتمادنا فى الأكثر على نسخة خطية عتيقة من ديوانه توجد بالخزانة الـلانونية . وهذه الهنات التى نقصد إلى الـكلام فيها هى تنبؤه وعقيدته وأخلاقه

(١) المطالعات ص ١٣١

فأما تنبؤه فهو الزلة الكبرى التي تؤخذ على ذلك العقل الجبار ، وهو في الحقيقة أمر لو صح لكان ذريعة إلى اتهامه في سلامة الادراك . ولكن من المعروف أن المعري كان يشك في صحة ذلك ، ويقول في هذا اللقب الذي غلب على أبي الطيب : إن اشتقاقه من النبوة أي الارتفاع ، لما كان من ترفعه على الخلق ، لا من النبأ الذي منه اشتقاق النبيّ . وهذا الخبر وحده كاف في نفي هذه التهمة عنه ، لا لتشكك المعري فيها ، ولكن لما يتضمنه ذلك من إخفاء قضية التنبؤ وعلم شهرتها بين الخاصة فأبلْه بالعامةَ ، وإلا لما سأل ابن القارح أبا العلاء عن حقيقتها فأجابه أبو العلاء بذلك الجواب . وهذا على أن ما بين المتنبي وأبي العلاء من الزمن لا يجاوز العقد الواحد من السنين . فكيف خفي هذا الأمر ودفن مع المتنبي حتى أن اثنين من كبار أدباء ذلك العصر لا يجدان سبيلا إلى التوثق منه ، مع أن العادة في مثله إذا وقع ولو ممن هو أدنى من المتنبي مقاماً ، أن يشتهر ويتسامع فيتناقله الناس ولا يبقى أحد ليس عنده نبأ منه !

وأكثر من خبر المعري دلالة على هذا المعنى ، خبر ابن جني الذي ذكر له أبو القاسم الشريف (الشريف الغرناطي) في شرح مقصورة حازم ، قال : « وحكى أبو الفتح ابن جني قال : سمعت أبا الطيب المتنبي يقول : إنما لقبت بالمتنبي لقولي :

أنا تِرْبُ النـدَى وربُّ القوافي
وسمامُ العـدَى وغيظُ الحسودِ
أنا فِي أمةٍ تداركها الله
غريبٌ كصالحٍ في ثمودِ »

فهو لو كان تنبأ حقيقة لما جهل ذلك من أمره حتى يحتاج إلى البيان ، وإلا كان كالمتذر بأقبح من الزلة . وصفوة القول أن قضية تنبئه لم تثبت حتى في زمن حياته . وهي إن لم تكن من إشاعات خصومه الكاذبة فهي على الأرجح مما نُبز به لتشبيهه نفسه بالأنبياء كما في البيتين السابقين والبيت الآخر الذي يقول فيه :

ما مقامي بأرض نخلة إلا   كمقام المسيح بين اليهود

وننظر في ديوانه فلا نجد ما يدل على هذه القضية لا تصريحاً ولا تلويحاً إلا ما كان من أمر سجنه في صباه بسبب وشاية بعض الناس به إلى الوالي . فنقول ما هي هذه الوشاية ؟ أتراها مما له علاقة بهذا الأمر ؟ وتجيب نسختنا عن ذلك بما كتب فيها على القصيدة التي مدح بها الوالي فتقول :

« وكان قوم في صباه وشوا به إلى السلطان وتكذبوا عليه وقالوا له قد انقاد إليه خلق من العرب ، وقد عزم على أخذ بلدك ، حتى أوحشوه منه . فاعتقله وضيق عليه فقال يمدحه » . فالوشاية إذاً هي خروجه على السلطان لا ادعاؤه النبوة . واستمع إلى ما يقوله في استعطاف الوالي من تلك القصيدة :

أمالك رقي ومن شأنه   هبات اللجين وعتق العبيد
دعوتك عند انقطاع الرجا   ء والموت مني كحبل الوريد
دعوتك لما براني البلى   وأوهن رجلي ثقلُ الحديد
وقد كان مشيهما في النعال   فقد صار مشيهما في القيود
وكنت من الناس في محفل   فها أنا في محفل من قرود

يريد المسجونين من اللصوص والجناة المختلفي الطبقات السيئي السلوك .

تعجل فيَّ وجوب الحدود   وحدِّيَ قبل وجوب السجود

يريد أنه صغير لم تجب عليه الصلاة فكيف يجب عليه الحد ؟

وقيل عدوت على العالمين   بين ولادي وبين القعود

يريد أنهم اتهموه بالعدوان على العالمين في حال الطفولة قبل أن يستطيع القعود . وليلاحظ القارئ نوع التهمة فهي منحصرة في الخروج ، ولو كانت ادعاء النبوة لما قال عدوت على العالمين :

فمالك تقبلُ زُورَ الكلام   وقدرُ الشهادة قدرُ الشهود

يريد أن الشهود من سفلة الناس فشهادتهم مردودة لعدم تورعهم عن الكذب :

فلا تسمعنَّ من الكاشحين   ولا تعبأنَّ بمحكِ اليهود
وكن فارقاً بين دعوى أردت   ودعوى فعلتُ بشأوٍ بعيد
وفي جود كفك ما جدت لي   بنفسي ولو كنت أشقى ثمود

فهذا كلامه في حال صباه قبل أن يناصبه العداء أحد من المنافسين له والحانقين عليه ، لم يتضمن شيئاً من الاشارة إلى دعوى النبوة ، ولا يمكن أن تفهم منه بحال . فلو كان قال هذه القصيدة في إبان شهرته وانتشار ذكره لقلنا إنه جمجم فيها وداري عن نفسه ، ولكنه كما علمت قالها في صباه ، وهي من أوائل شعره بلا نزاع في الاعتماد عليها وصحة الاستشهاد بها . بل نحن نسلم جدلاً أنه ادعى النبوة وبسببها سجن ، فكيف يصح قوله حينئذ :

وكن فارقاً بين دعوى أردت ودعوى فعلت بشأو بعيد ؟

وهل من يريد إدعاء النبوة متنبٍّ بالفعل ؟ وهل هذه الارادة مما يمكن الاطلاع عليه قبل إظهارها حتى تتأتى الوشاية به ؟ وذلك بخلاف الخروج فان بوادره تظهر للناس قبل الاقدام عليه ، لأنه لا بد له من دعاوة كبيرة ، إذ أن الفرد لا يمكن أن يرفع وحده علم الثورة فى وجه الدولة !

ومع تأكيدنا أن الذين وشوا به لم يتهموه إلا بالخروج ، لا نستبعد أنهم الذين لمزوه بذلك اللقب المشنوء لما رأوا تعاليه عليهم وتقريعه لهم مع تشبيههم باليهود وتشبيه نفسه بالأنبياء كما فى قوله :

ما مقامى بأرض نخلة إلا كمقام المسيح بين اليهود

وقوله :

فلا تسمعن من الكاذبين ولا تعبأن بمحك اليهود

بل اننا لا نكاد نميل عن هذا الرأى فى سبب تلقيبه بالمتنبى حتى تقوم الحجة ، والحجة القاطعة على خلافه . وأما أقوال خصومه فى ذلك فمجرد ادكار قوله انه سهام العدا وغيظ الحسود تضعف وتضمحل حتى لا يبقى لها اعتبار ما

* * *

وأما عقيدته فهى مما كثر كلام الناس فيه ؛ ولسوء حظ المتنبى لم يتناولها إلا منتقد ، وليس هناك معتقد فيما نعلم تولى رد مارمى به من الزيغ والالحاد . فنحن نبين مايستند إليه متهموه فيها ونعقب عليه بما يلوح لنا من ذلك صحيحاً أو باطلا . غير أنه لابد من القول أن مثل المتنبى فى أدبه وشعره وروحه الفلسفية لا يطمع منه أن يكون متديناً خالصاً إلى حد التبتل والانقطاع للعبادة ومحاسبة نفسه على الخطرات وحبس لسانه عن فضول الكلام ، فان التدين بهذه الصفة مما لا يكاد يفهمه إخوانه من الشعراء وأهل الأدب على وجه العموم . وقديماً مثلوا برقة إيمان الأدباء ، فكيف نريد من المتنبى أن يتستر على جمهورهم ويقدم لنا من نفسه «أويسا» فى ثوب شاعر ، أو شاعراً فى ثوب «أويس» ؟ ولئن قال على بن حمزة عن المتنبى إنه ما صام ولا صلى ولا قرأ القرآن فلقد قال عنه إنه ما كذب ولا زنا ولا لاط . وهذه إن لم تقم بتلك فان تلك لا اعتداد بها مع هذه . وهل كان الشعراء الذين لم يتنزهوا عن الكذب والزنا واللواط يصومون ويصلون ويقرأون القرآن ؟

وبهذا تعلم أن عدوان الخصومة على المتنبى قد ستر من محاسنه ما لو ظهر لكان له فى النفوس مكان أسمى مما له فيها الآن

ولأقص على سمعك بعد هذه المقدمة بعض الأبيات التى يُزَنُّ بسببها بضعف العقيدة . قال يمدح بدر بن عمار :

تَتَقاصَرُ الأوهامُ عن إدراكه مثلُ الذى الأفلاكُ فيه والدُّنى

فقالوا : لقد أفرط جداً لأنه شبه ممدوحه بالحق سبحانه وتعالى ، لأن الذى فيه الأفلاك والدنى هو علمه عزّ وجل . ونقول إن هذا تعسف ظاهر ، فمن الذى نقل عنه أنه يريد ما ذكرتم ؟ وماذا حسّن فى بلاغتكم ؟ التعبير عن علم الله بالذى الأفلاك فيه والدنى حتى رجحتموه على أن يكون المراد به هذا الفضاء الواسع الذى يحتوى الأفلاك والدنى حقيقة ممتداً وراء الآفاق التى تتقاصر عن إدراكها العقول ؟

وقال المتنبى :

أنا مُبصرٌ وأظن أنى نائمٌ من كان يحلم بالاله فأحلما ؟

فقالوا : هذه مبالغة مذمومة وإفراط وتجاوز حد ، ثم هو غلط فى إنكار رؤية الله تعالى فى النوم فان الأخبار قد تواترت بذلك . ونقول : إن للبيت رواية أخرى وهى الأشهر هكذا :

من كان يحلم ما يراه فاحلما ، وهى كذلك فى نسختنا ، والمعنى عليها أظهر من الأولى فلا يبعد أن تكون تحريفاً

« البقية فى العدد القادم » (طنجة) عبد الله كنون الحسنى

ظهر حديثاً :

فى أصول الأدب

صفحات من الأدب الحى والآراء الجديدة

بقلم

أحمد حسن الزيات

يطلب من إدارة « الرسالة » ومن جميع المكاتب

وثمنه ١٢ قرشاً عدا أجرة البريد